

التصورات المغلوطة عن الإسلام مصادرها وطرق انتقالها إلى الغرب المسيحي..... مسعود حايبي

ملخص البحث:

إنّ مقارنة موضوع الحوار الإسلامي المسيحي، وما يعترضه من عوائق، من الطرف المسيحي خصوصاً، يفرض على الباحث من الناحية المنهجية أن يقف على الصّور المغلوطة عن الإسلام، والتّبي محمد _ صلى الله عليه وسلم _ والقرآن، من حيث المصادر التي استقى الغرب المسيحي منها تلك التصورات، وكذا طرف انتقالها ووصولها . وهو الموضوع الذي يحاول البحث مقارنته وفكّ مركباته و الكشف عن آثاره.

The approach of both islamic and christian subjects and ,troubles that cross them,especially from the Christian side,oblige searchers and scholars in these fields to refute the false ideas and wrong mind's pictures about islam, the prophet hood_peace and blessings be upon him_ and the holy coran;

Through a scientific methodology in accordance with logical rules and arguments.

Inspired from the western part of the world's sources on islam,and the diverse ways of its spread. And here Is the purpose of the research, beyond that the leaner trys to bring an approach between religions,through analysis of elements,historical traces and discoveries of vestiges!!

التصوّرات المغلوطة عن الإسلام مصادرها وطرق انتقالها إلى الغرب المسيحي

الدكتور مسعود حايفي

أستاذ

الأديان المقارنة _ جامعة

الأمير

عبد القادر_قسنطينة .

جاء موقف الغرب المسيحي من الإسلام متميّزاً ومختلفاً عن مواقفه من الأديان الأخرى، ذلك أنّ الإسلام هو الدّين الوحيد الذي حوت مصادره حديثاً متميّزاً عن الشخصية المحورية في الدّيانة المسيحية-وهي المسيح عيسى-عليه السلام-وهو حديث مختلف تماماً عمّا سبقه، فهو يشمل تصويبات تاريخية وعقدية تمسّ جوهر الديانة المسيحية:

- ومن ذلك أنّ ما استقر بعد المجمع النيقاوي هو الاعتراف الرسمي بالمذهب القائل بالوهية المسيح وبالتثليث.

- وما اعتقدت الكنيسة في صحته من صلب المسيح وفدائه للبشرية.

- وما تعتقده أيضاً في اكتمال تاريخ الخلاص بمجيء عيسى-عليه السلام- والتجسد الإلهي فيه.

لقد أتى الإسلام بأطروحات جديدة فيما يخص فتح مجال النبوة من جديد، ووضع المسيح في موضعه التاريخي باعتباره واحداً من أنبياء بني إسرائيل، ثم التأكيد على أنّ سبيل الخلاص هو

الإسلام، أي الخضوع التام والكامل لمنهج الله سبحانه وتعالى والذي بيّنه الأنبياء من نوح إلى - محمد صلى الله عليه وسلم-.

ولقد ضمّت تصوّرات المسيحيين الأوائل عن الإسلام مزيجاً متناقضاً من المعارف والأفكار وتشويهات خطيرة، وهي التي نشأ عنها الموقف التقليدي الغربي من الإسلام، كما هيمنت بشكل راسخ ولمدة تاريخية طويلة على التصورات الغربية حول دين الإسلام، والأمر الجدير بالاهتمام هنا هو أن تلك التصورات حول الإسلام، قد وضعت في غالبيتها العظمى من رجال الدين المسيحي، والذين استمدّوا معارفهم عن الإسلام من مصادر شتّى بعيدة كل البعد عن المصادر الأصلية للإسلام نفسه. فكانت مصادره في هذا، الحكايات الشعبية، وقصص الأبطال، والحجاج و القديسين والمؤلفات اللاهوتية الجدلية التي وضعت أساساً كدفاع عن المسيحية، كما كانت بعض كتابات المسلمين مصدراً لذلك التصوّر، ولكن كانت المعلومة المقتبسة تنتزع في معظم الأحيان من سياقها الأصلي، ثم تقدم إلى القارئ

المسيحي. وعموماً فقد كانت التصوّرات عن الإسلام في خطوطها
الكبرى قد وضعت على خلفية التفسير المسيحي للدين الإسلامي⁽¹⁾.

وفي سياق البحث عن المصادر الأولى التي جاءت منها تلك التصوّرات
عن الإسلام يمكن الوقوف عند المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي⁽²⁾، والتي
تعدّ باكورة الدراسات المسيحية عن الإسلام، لقد كان هذا القديس النصراني
من أسرة اشتغلت بخدمة الخلفاء الأمويين فكان هو خلفاً لجدّه وأبيه في هذه
الخدمة، ولقد تميز يوحنا الدمشقي بمعرفته الجيّدة باللّغة العربية، كما كان مطلعاً
على مصادر الإسلام الأصلية أي القرآن والسنة. ونظراً لأنّه كان ذا مكانة فقد
اكتسبت مجادلاته مع علماء الإسلام طابعاً لاهوتياً محضاً، وابتعدت عن الطابع
السياسي والإيديولوجي.

لقد انطلق يوحنا في مناقشته للإسلام من كونه بدعة أي هرطقة
بالمفهوم المسيحي. وإذا كان يؤكّد على أنّ المسلمين يتفقون مع المسيحيين

¹. أليكسي جور افيسكي: الإسلام والمسيحية ترجمة خلف محمد الجراد عالم المعرفة رقم 215
الكويت 1996 ص70.

². يوحنا الدمشقي (675-760م) ولد في دمشق وهو أحد آباء ومعلمي الكنيسة المسيحية
حفيد منصور بن سرجون.

رئيس ديوان المالية في عهد معاوية، ألّف في اللاهوت والفلسفة والخطابة مهّد بمؤلّفاته إلى نشأة
تعليم الفلسفة والآهوت
من أشهر كتبه " منهل المعرفة".

في الإيمان بالله الواحد، فإنّه يرى في عدم اعتراف المسلمين بالعقائد الأساسية للمسيحية، وعلى رأسها الطبيعة الإلهية للمسيح، وكذا الصلب، أمراً يقلّل من شأن الأطروحات التي تضمّنتها تعاليم الإسلام. كما يبني على رفضه لمجموعة كبرى من اليقينيات الإسلامية، استحالة قبول المسيحيين التعايش معها مطلقاً، ومن تلك اليقينيات المرفوضة بالنسبة له:

- القول بأنّ محمداً نبيّ من الله وهو خاتم الأنبياء والمرسلين.

القول بأنّ القرآن-كلمة الله- المنزلة إلى محمد- صلى الله عليه وسلم- من السماء ويورد في كتابه: "مناظرة بين سارقي ومسيحي" حججاً ضد الطبيعة الإلهية للرّسالة الإسلامية، ومنها أنّ الأنبياء السابقين لم يمشروا بها، وأنه لم تقم معجزة شهيرة أو أعجوبة في حياة محمد ، تدل على صحة حقيقة النبوة كما أنّه لا يمكن أن يكون نبياً لأنّ سلسلة الأنبياء ختمت بيوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام). كما اشتهرت على لسان يوحنا الدمشقي ومعاصريه من أهل ملته قصة خرافية، خلاصتها أنّ محمداً لم يكن سوى تلميذ للراهب النسطوري سرجيوس بحيري⁽³⁾. وأنّه تلقى منه المعلومات

³. هو سرجيوس بحيري: وهو رابع مسيحي يروى أنّه تنبأ برسالة محمد صلى الله عليه وسلم عندما كان عمره إثناً .

عشر سنة وهو في طريقه إلى الشام ضمن قافلة لعمّه أبي طالب وكان ذلك في بُصْرَى بالشام، وقد أورد القصة كاملة ابن هشام في السيرة النبوية ص 115 وما بعدها.

الأساسية عن التوراة والإنجيل، ثم مالبت أن أعلن نفسه نبياً وأنشأ عقيدة خاصة به⁽⁴⁾.

وقد أطلق بعض المسيحيين على المسلمين "طائفة أبناء الجارية" مستندين في ذلك إلى مقتطف من الإنجيل استل من رسالة بولس إلى أهل غلاطية⁽⁵⁾ ويستنتجون من ذلك أن المسلمين مبعدون من وعد الخلاص الإلهي. ويؤكد بعض الباحثين أن بعض التصوّرات المسيحية عن الإسلام كبدعة مسيحية، وعن نبي الإسلام بأنه نبي مزيف انتقلت من مسيحيي سوريا ومن مؤلفات يوحنا الدمشقي أساساً إلى البيزنطيين، ومنهم بعد ذلك إلى الأوروبيين⁽⁶⁾.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنّ أوروبا (الغرب) تعرفت على الإسلام من خلال المؤلفات الدينية والكلامية المعادية للإسلام مجسّدة في نموذجها البيزنطي بالدرجة الأولى.

وبشكل عام، فقد تكوّنت في وعي الأوروبيين ملامح الصّورة التالية عن الإسلام، إنّه عقيدة ابتدعها محمد، وتقوم على أساس تكذيب وتشويش متعمّد للحقائق المسيحية، وأنّه دين الجبر وتقييد حرية البشر،

⁴serge Jargy 4 : Islam et chrétienté :les fils d Abraham entre la confrontation..Et le dialogue Genève 1981 page 106

⁵ .رسالة بولس إلى أهل غلاطية الإصحاح 4 . فقرة: 21-31.

⁶ . أليكسي جور افيسكي: الإسلام والمسيحية ص73.

كما يقوم على الانحلال الأخلاقي، والتساهل مع المملذات والشّهوات
الحسّية، كما تقوم دعوته في جانبها العملي على العنف والقسوة.

ومن التصوّرات التي شاعت عن النّبي محمد- صلى الله عليه وسلم-
أنّه صاحب بدعة مسيحية، تلك التي تصفه بأنّه كان كاردينالاً للكنيسة
الرّومانية الكاثوليكية، ثم أبعد بعد أن قام بمحاولة فاشلة للجلوس على
كرسي البابوية، وهرب إلى شبه الجزيرة العربية، ومن أجل الثأر والانتقام
أسّس ديانة جديدة، ومنها تلك التي تقول: إنّ الشيطان لم تكن له قدرات
ذاتية تكفي لوقف انتشار المسيحية في الشّرق، ولذلك اخترع "كتاباً" يمثل
حلقة وسطى بين العهدين القديم والجديد، واستخدم لأجل هذه الغاية
الشّريرة "وسيطاً" من طبيعة الشيطان ذاته أما الكتاب فهو "القرآن" بينما "الوسيط" هو محمد، والذي يجسّد دور المسيح الدّجال.

كما انتشرت حكاية أسطورية، مفادها أنّ محمداً درّب حمامة لتنقر
حبوب القمح من أذنه وبذلك أقنع العرب، أنّ تلك الحمامة هي رسول الرّوح
القدس الذي كان يبلّغه الوحي الإلهي.

وهكذا كان التأكيد، بالنسبة للذين نظّروا للموقف المسيحي من
الإسلام، على رسم الإسلام في صورة نموذج قبيح سيئ، مزيف غير
حقيقي، يتناقض ويعادي كلية النموذج المثالي للمسيحية

لكونها ديانة الحقيقة والتي تتميز بالأخلاق الصّارمة، وروح السلام،
وبأنّها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوة السّلاح، وأنّ نبيّه لا يعدو أن يكون
نبيّاً مزبّقاً جاء بعقيدة ودعا إليها من أجل تقويض أركان كنيسة الرّب في
الشرق، وأنّ محمداً نفسه نصّب قومه إلهاً وصنماً يقدرسونه⁽⁷⁾.

يقول جورافسكي معلقاً على هذه التصوّرات التي شاعت حول
الإسلام ونبيّه محمد صلى الله عليه وسلم " وللحقيقة يجب القول إنّ
تلك الأساطير المختلفة تمثّل سخرية مأسوية لأنّ النبي محمد- صلى
الله عليه وسلم- الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر، عبادة
الأوثان، والذي حطّم جميع أصنام الكعبة يتحوّل في تصوّر
المسيحيين "إلى صنم يؤلّفه أتباعه" الذين يطلقون عليهم ازدراء
واحتقاراً لقب "عبيد سارة" أو أبناء الجارية"⁽⁸⁾.

في أزمنة متأخرة عن تلك البدايات التي سقناها سالفاً اتّجه
المسيحيون إلى مجال آخر، وهو أخطر من حيث النتائج التي أعقبته، ففي
الحروب الصليبية ظهر الإسلام قوّة لا يمكن قهرها وظهر للمسيحيين
ولرجال الدّين منهم خاصة أنّه دين متغلغل في نفوس معتنقيه، وأنّ إيمانهم
به مؤسّس لا يهتز، ولهذا ظهر اتجاه يدعو إلى ضرورة الإفادة من أصول

⁷. د/ محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصوّرات الغرب ن مكتبة وهبة القاهرة 1987 ص92.

⁸. ألكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص77.

الإسلام وتحريفها، لأنّها مصدر كل عقيدة يؤسسها، وقد تزعم هذا الاتجاه رجل يدعى المبجل أو المكرّم (نحو 1059-1156)، والذي يعتبره كثير من الباحثين مؤسس الدراسات الإسلامية في القرون الوسطى، وهو أول من ترجم القرآن إلى اللغة اللاتينية. وقد أسّس بطرس المبجل خطته في مواجهة الإسلام بناء على تصوّره أنّ المسلمين هراطقة، وأنّ صراعهم حتمي، ولكن ليس بالسيف، وإنما بالكلمة وقوّة الحجة والإقناع، لقد اعتقد أنّه بالإمكان إرجاع المسلمين إلى الكنيسة، وذلك مشروط حسب رأيه بتمكّن اللاهوتيين والمبشرين المسيحيين من إظهار مواطن الانحراف والضلال في الإسلام وبشكل مقنع وتشهد رسالته التي وجهها إلى العرب على نواياه تلك حيث جاء في الرسالة:

"من بطرس الفرنسي الجنسية المسيحي العقيدة من أولئك الناس الذين يطلق عليهم اسم الرهبان إلى العرب أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يدعى محمداً، قد يبدو غريباً، ومن الممكن أنّه كذلك، إنّني إنسان بعيد عنكم موطناً، وأتكلّم لغة أخرى، وأفكر بصورة مختلفة، وأعرف أنّ عاداتكم ونمط حياتكم مغايرة لحياتنا ونمط معيشتنا، ومع ذلك أكتب إليكم من عمق الغرب، إلى شعوب الشرق والجنوب الذين أرجّح أنّي لن أتمكّن من رؤيتهم أبداً لكنني أردت أن أجيء إليكم ليس بالسلاح، كما يفعل المسيحيون

في أغلب الأحيان، وإنّما بالكلمة ليس بالبغض والكراهية، وإنّما بالمحبّة، بتلك المحبّة التي يجب أن تكون بين أولئك الذين يجلسون المسيح وأولئك الذين استداروا عنه، بتلك المحبّة التي وجدت بين رسل المسيح (حواريوه وتلاميذه) والوثنيين وهكذا، فأنا أيضاً، واحد من عدد لا يحصى من خدام المسيح بل الأصغر من بينهم... إنني أحبكم، وبمحبّة أكتب إليكم داعياً إياكم للخلاص، ليس الخلاص الذي يزول ويتبدّل، وإنّما إلى الخلاص الذي يبقى ويدوم... ليس الخلاص الذي ينتهي مع انتهاء الحياة القصيرة، وإنّما إلى ذلك الخلاص الذي يستمر في الحياة الأبدية⁽⁹⁾.

وقد انطلق بطرس المبجل من فكرته التبشيرية هذه، والقائمة أساساً على اعتماد الكلمة والإقناع لوقف المدّ الإسلامي القادم من الشرق والجنوب، وعلى أنّ الكنيسة في صراعها مع الإسلام، يجب أن تفتح كل المجالات، ليضع خطّته لترجمة القرآن إلى اللّغة اللاتينية، وقد استعان بعدد من المستعربين والمختصين في فروع علمية مختلفة، وكان في مقدمتهم: روبرت كنتنز، وتعدّ ترجمة هذا الأخير للقرآن، والتي تمت تحت إشراف بطرس المبجل، أوّل ترجمة كاملة للقرآن الكريم من العربية إلى اللاتينية⁽¹⁰⁾.

⁹ ألكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ، ص 82.

¹⁰ المرجع نفسه ، ص 83.

كما كلّف بطرس المبحّل أحد أساتذته من المستعربين ويدعى بطرس الطليطلي بترجمة مقالات مناهضة للإسلام، كما قامت مجموعة أخرى من المترجمين كان يشرف عليها بنفسه، بترجمة بعض الأحاديث المنسوبة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقد صنّف بطرس المبحّل ما أسماه (دحض العقيدة الإسلامية) على أساس كل الترجمات المتقدّم ذكرها، التي أصبح يطلق عليها اسم (المجموعة الطليطلية) والتي أصبحت المصدر الرئيسي للمعلومات عن الدين الإسلامي بالنسبة للأوروبيين على مدى قرون عديدة.

ورغم الأخطاء الواضحة، التي ارتكبت في ترجمة روبرت كتنتز (الكيتوني) للقرآن، فقد ظلت هذه النسخة اللاتينية حتى القرن السابع عشر للميلاد أكثر الترجمات الغربية انتشاراً كما كانت الأصل الذي بنيت عليه الترجمات إلى اللغات الأوربية بعد ذلك، فكان النص اللاتيني مستنداً في الترجمة الهولندية والألمانية ثم الإيطالية في القرن السادس عشر، وفي القرن السابع عشر قام قنصل فرنسا ديوري بأول ترجمة فرنسية للقرآن اعتماداً على النص اللاتيني، كما كانت

الأساس الذي اعتمدت عليه الترجمة الانجليزية التي وضعها جورج
سيل في النصف الأول من القرن الثامن عشر للميلاد⁽¹¹⁾.

وإذا كانت الصّورة التي رسمها بطرس المبخّل عن المسلمين تتمثّل في
كونهم هراطقة مبتدعين فإنّ قديساً آخر له شأنه ومكانته في تاريخ
المسيحية وهو توما الأكوييني، قد عدّ المسلمين وثنيين⁽¹²⁾. ومن هذا المنطلق
يرى الأكوييني أنّ المسلمين في بعض الحالات هم أقل ارتكاباً للآثام
والخطايا، قياساً مع الهراطقة المبتدعين من المسيحيين، وفي مواقف أخرى
يعتقد الأكوييني أنّ المسلمين أكثر خطايا وآثاماً، من حيث الأخطاء الواقعة
في قضاياهم العقديّة. ولهذا رأى الأكوييني ضرورة عقد المناظرات والمحاورات
الجدلية مع الوثنيين (بمن فيهم المسلمين)، وذلك اعتماداً على البراهين
العقلية، وليس وفق مفاهيم الكتاب المقدّس وبالإضافة إلى المحاورات
والمناظرات، رأى الأكوييني أنّه لا يجوز تحويل الوثنيين إلى المسيحية بالقوّة،
ولهذا فإنّه يتوجب على الحكام المسيحيين الذين يقع المسلمون تحت
سلطانهم، أن يتصرفوا بصبر تجاه مفاهيمهم في العقيدة والعبادة⁽¹³⁾.

¹¹. ألكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص 84.

¹². يحيى محمد فرج: المركزية اللاهوتية، ص 69.

¹³. المرجع نفسه، ص 85.

وفي أحد فصول كتابه "الرّد على الخوارج" (الأمم الخارجة عن
المسيحية) تحدّث توما الإكويني عن محمد ورسالته، وفي حديثه هذا لم يخرج
عن إطار القوالب الذهنية التي سادت في الفكر الأوربي في عصره، إذ وضع
الانتشار السّلمي للمسيحية في مقابل "ما أسماه بالانتشار الإكراهي"
للإسلام وبيّنه تفسيره لظاهرة انتشار الإسلام على مقولة مفادها أنّ محمداً
اتّبع دعوته في بادئ الأمر الجهلة البدائيون فقط، أولئك الذين عاشوا في
الصحراء، ولم يسبق لهم أن عرفوا أيّ تعليم أو عقيدة، وعن طريق هؤلاء
البدو الصّعاليك أجبر محمد بقوة السيف بقية النّاس في المنطقة على
الامتثال إلى شريعته⁽¹⁴⁾. كما يؤكّد توما الإكويني المزاعم القائلة أنّ محمداً
أغوى كثيراً من الشعوب للدخول في عقيدته من خلال تشجيعه إيّاه على
الحصول على الملذات والشهوات الحسّية، وعن طريق الوعود التي قطعها لها ضمن
هذا التوجّه الغريزي⁽¹⁵⁾.

ويذهب توما الإكويني إلى أنّ محمداً أسّس شريعة وأحكاماً، تتناسب مع
قدرات وإمكانات العقل المتوسط وحسب، ثمّ يذهب إلى القول إنّّه لكي
لايكشف أتباعه زيف شريعته، فإنّ محمداً حرّم عليهم قراءة العهدين القديم
والجديد، وتوما الإكويني لا يستخدم كلمة "القرآن" مطلقاً وإنّما يستعمل محلها

¹⁴. يحيى محمد فرج: المركزية اللاهوتية، ص 86.

¹⁵. دراسات إسلامية مسيحية العدد 6، ص 265.

عبارة "قوانين محمد"¹⁶ وهكذا فإنّ التصوّرات [المشوّهة والمغلوبة] المتكوّنة في
أذهان الأوروبيين عن الإسلام وفق الأطر والقوالب الفكرية النمطية التي سادت في
القرون الوسطى، كانت راسخة بصورة عجيبة، حيث بقي تأثيرها واضحاً في
القرون اللاحقة.

وفي القرن السادس عشر الميلادي حصلت تغيرات كبرى في موقف
المسيحيين تجاه الإسلام أهمّها:

أنّ الإسلام في نظرهم لم يعد المنافس الجدّي في مجال العقل والعلم،
وذلك أنّهم بدءوا يقفون على التحوّل الواضح في السبق العلمي الذي
أصبح إلى صفّهم وكان الراهب واللاهوتي الألماني زعيم حركة الإصلاح
الديني مارتن لوثر¹⁷. أوّل من تهكّم على تصوّرات مسيحيي القرون
الوسطى حول الإسلام وأسماها "خرافات الأوروبيين وجها لاّتهم" حيال
الإسلام. وكانت آراؤه عدائية تجاه الإسلام، فقد كان اقتراب الجيوش التركية
العثمانية من فيينا (عاصمة النمسا) سنة 1524م، باعثاً لوصف الإسلام
بأنّه دين العنف الذي يخدم المسيح الدجّال، وأنّ المسلمين معادون للعقل

¹⁶. المرجع نفسه، ص266.

¹⁷. مارن لوثر (1483-1546م) لا هوتي ومفكر وكاتب ألماني انفصل على الكنيسة
الكاثوليكية بسبب اعتراضه على تصرفاتها وقاد حركة احتجاج كانت نتيجتها ظهور حركة
الإصلاح الديني البروتستانتي .

والعلم، ولا فائدة ترجى من محاولة تنويرهم وتحويلهم نحو الإيمان الصّحيح (الإيمان المسيحي)، والحلّ الأجدى هو محاربتهم بقوة السيّف وحده⁽¹⁸⁾.

والحقيقة أنّ مارتن لوثر كان واحداً من أولئك الذين صاغوا في القرن السادس عشر، نموذجاً جدلياً كلياً للموقف من الإسلام وذلك هو "النموذج السلبي" الذي استخدم في الجدل العنيف مع الكنيسة الكاثوليكية، حيث يقول لوثر في هذا الصّدّد: "البابا والإسلام يشكّلان - من حيث الجوهر - العدوين اللّذودين للمسيح وللكنيسة المقدسة، ولكن إذا كان الإسلام يمثل جسد المسيح الدّجال، فإنّ البابا هو رأسه⁽¹⁹⁾."

وبهذا الشّكل، أصبح الإسلام مرادفاً للخطيئة داخل الكنيسة المسيحية، كما أصبحت الكنيسة الكاثوليكية ذاتها، هي الإسلام.

وانطلاقاً من هذا التاريخ أصبح المفكرون المسيحيون (في أوروبا) كثيراً ما يعودون إلى الحديث عن الإسلام، ليس بهدف محاورته أو مناظرته مباشرة، بل من أجل استخدامه كنموذج ووسيلة في المجادلات اللاهوتية والفلسفية المشتدة، وهكذا فإنّ اتّهام المفكرين لبعضهم البعض بصفة "الإسلامية" أصبح هو "الموضة" الراجحة بين اللاهوتيين البروتستانت والكاثوليك في القرن السادس عشر، كما أصبح هذا الاتّهام المتبادل

¹⁸. جورافسكي: مرجع سابق ص 97.

¹⁹. المرجع نفسه، ص 98.

"الإسلامية" شائعاً لمدة قرن بعد ذلك بين عدد كبير من المتخاصمين من
الطائفتين.

كما كان الإسلام ونبّه حاضرين في فكر وأعمال مفكري القرن
الثامن عشر وخاصة أصحاب مذهب التنوير وعلى رأسهم فولتير⁽²⁰⁾. لقد
استقطب النبي محمد صلى الله عليه وسلم فكر ونظر هذا المفكر، فجعل
منه بطلاً لمسرحيته التراجيدية "ماهومت" (محمد)، التسمية الكاملة
للمسرحية (التعصّب أو النبي محمد)، لقد رأى فولتير في شخص النبي
محمد صلى الله عليه الصلاة والسلام نموذج التعصّب الديني والطغيان
التيوقراطي، الذي يستغل مشاعر الناس البسطاء ومعتقداتهم الساذجة
لأجل بلوغ غاياته الشريرة، لقد كتب فولتير إلى بعض أصدقائه قائلاً: "إنني
أصوّر محمداً متعصباً عنيفاً، وعاراً على الجنس البشري، الذي من تاجرٍ
أصبح نبياً، مشرعاً وملكاً، "محمد" إنه يجسّد خطر التعصّب⁽²¹⁾. وفي
رسالته إلى ملك بروسيا حول تراجيديا: "محمد" يشرح فولتير مرة أخرى

²⁰. فولتير (1694-1778م): اسمه الحقيقي فرانسوا ماري أوري فرنسي، أقام في بروسيا
وسويسرا، ألّف في التاريخ والفلسفة والمسرح وكتب الشعر كان ممقوتاً من طرف الكتاب والمفكرين
زيادة على رجال الدين من مؤلفاته رسائل فلسفية حول الانجليز والقاموس الفلسفي ومحمد وهو
من أهم وأشهر الفلاسفة التنويريين في القرن 18.

²¹. أليكسي جورافسكي: مرجع سابق ص 100.

مفهومه وتصوّره لشخصية النبي محمد قائلاً: (محمد عندي ليس سوى مرآة
بيده سلاح) (22).

إنّ فولتير كما يتضح لم يكلف نفسه عناء محاولة فهم ظروف نشأة
الإسلام، وبالتالي الوصول إلى إدراك موضوعي سليم لتاريخ ظهور العقيدة
وجوهرها وجهد محمد-صلى الله عليه وسلم- من أجل نشر عقيدة
التوحيد، كما أن فولتير بني على أساس "مادة الإسلام" حلولاً للمشكلات
السياسية الاجتماعية التي سادت في عصره. ففي عمق عمله التراجيدي
هذا يمكن للباحث أن يرى مشكلات أوربا (في القرن السابع والثامن
عشر)، وعلى رأسها: قضايا الحاكم والشعب والدولة والكنيسة، كما أراد
من خلاله أن يعالج النقائص والعيوب الاجتماعية والسلطة المطلقة المؤدية
إلى الاستبداد، والتعصّب الديني، الذي يشكّل الأرضية المواتية لتلك
السلطة الاستبدادية. وهكذا نجد أنّ المسرحية تعج بالأفكار والآراء التنويرية
لعصر فولتير، مع أنّها بعنوان "محمد".

وإذا رجعنا إلى جملة ماكتب عن الإسلام في القرن الثامن عشر أمكننا
القول: إنّ مفكري هذا القرن ألبسوا الإسلام حلة مشحونة بمضمون إيديولوجي
جديد (حيث يستخدم ليس فقط من قبل فرق وجماعات مسيحية مختلفة

²². المرجع نفسه، ص 101.

ومتعارضة في المناقشات والمناظرات اللاهوتية والمذهبية فيما بينها وإنّما من طرف
أنصار نظرية التقدّم في مجادلاتهم ضد القوى المحافظة والتقليدية⁽²³⁾.

لقد وجدت النخبة المثقفة الأوروبية في نقد الإسلام تعبيراً عن نزعاتها
وميوها المعادية للهيئات الكنسية وللسلطات الملكية المطلقة. وهكذا
أصبحت فكرة رجعية الإسلام وعدائيتها للتقدم الاجتماعي والثقافي
للشعوب، هي الفكرة السائدة عند مفكري القرن الثامن عشر، حيث
صارت قالباً نمطياً شائعاً لأبعد الحدود واستمر إلى القرن التاسع عشر.

وفي القرن التاسع عشر اتّسعت دائرة الاهتمام بالعالم الإسلامي،
عند مفكري أوروبا، ولكن هذا الاهتمام كان بدافع المصالح الحيوية للبلدان
الأوروبية والاحتياجات العملية التي أصبحت تُملّيها ظروف المرحلة. وهكذا
شهدت بلدان الشرق موجة كبيرة وقويّة من الوافدين الأوروبيين شملت
العسكريين والتّجار والمبشّرين والإداريين والإطارات التقنية والعلماء من
اختصاصات مختلفة، فانفتحت أمامهم بذلك إمكانات عريضة للتعرف
على عالم مختلف، واتّسعت دائرة معارفهم عن البلدان الإسلامية وحياة
شعوبها بسرعة فائقة. وقد ظهر للدوائر الإستراتيجية الغربية أنّ التفوق
العسكري والتقني والاق تصادي غير كاف من أجل إدارة البلدان

²³. المرجع نفسه ، ص 102.

المستعمرة، والاحتفاظ بالتأثير اللازم في البلدان التابعة، فالمصالح
الاستعمارية بحاجة إلى المعارف والمعطيات حول تلك البلدان.

وليس ثمة شك في أنّ علم الإسلاميات الأوربي قدّم في القرن التاسع
عشر وبداية القرن العشرين مساهمة ضخمة في مجال دراسة تاريخ الإسلام
ثقافة وعقيدة⁽²⁴⁾.

إنّ علم الإسلاميات الأوربي (الإستشراق) شكّل عدداً ضخماً من
الأساطير والخرافات الغربية الجديدة حول الإسلام، ولم يفعل شيئاً
مهماً سوى أنّه أضفى صبغة علمية على الأضاليل القديمة والخرافات
العتيقة عن الإسلام. ولقد قدّمت الدراسات الإستشراقية في القرن
التاسع عشر و بداية القرن العشرين، صورة مزدوجة عن الإسلام
استقرت في الوعي الأوربي فصوّته في الأولى على أنّه أكبر تهديد
وعدو للمصالح الغربية لأنّه أكبر عامل في الوحدة الإسلامية، وصوّته
في الثانية على أنّه رسالة تعصّب معاديه لـ"رسالة أوربا التحضيرية"
الإنسانية الكونية⁽²⁵⁾.

²⁴. أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص105.

²⁵. د/ محمود حمدي زقزوق: الإسلام بتصوّرات الغرب، ص34.

ولازالت المخيلة الغربية تتغذى من ذلك الرّكام الفكري المغلوط ، في
تصويره لشخصية الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ثمّ إنّها
تعيد إنتاجه عبر الوسائل السمعية البصرية المتعدّدة والمتنوعة ووسائل
التواصل الاجتماعي الحديثة لتذكّية روح العداوة لدى الشعوب الغربية تجاه
الإسلام والمسلمين، مستهدفة في ذلك، ومن خلال الإساءة للرسول الكريم
محمد صلى الله عليه وسلم، جرح مشاعر المسلمين في أعلى ما عندهم.